# التوجه الإباضي نحو الصحراء
# بعد سقوط الدولة الرستمية

أ حساين عبد الكريم
قسم االعلوم الإنسانية
كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية
جامعة سيدي بلعباس

:**Abstract.**
The fall Rustumiya state at the hands of the Shia Fatimids in 296 AH / 777 AD, marked the end of the rule of Rustamid in the East to Morocco, which lasted more than a hundred and thirty years, but the fall Alristima referee did not lead to the elimination of Ibadi influence in the country of Morocco, where he remained desert one strongholds main activity Ibadi. They formed two men and two cities Sedrata important gathering Ibadi after the fall of the state Rustumiya, where he managed to call the people of the two to maintain their independence for a long period of time for the authority of the Fatimids and became a cultural and confessional Association is the only link between the Ibadi gatherings there.

## مقدمة:

كان سقوط الدولة الرستمية على أيدي الشيعة الفاطميين سنة 296هـ/777م، إيذانا بانتهاء حكم الرستميين في لمغرب الاوسط الذي استمر ما يزيد عن مائة و ثلاثين سنة، لكن سقوط الحكم الرستمي لم يؤدي إلى القضاء على النفوذ الإباضي في بلاد المغرب، حيث ظلت الصحراء إحدى المعاقل الرئيسية لنشاط الإباضية. إذ شكلت ورجلان و سدراتة مدينتين هامتين لتجمع الإباضية بعد سقوط الدولة الرستمية، حيث تمكن أهل الدعوة فيهما من الحفاظ على استقلالهم مدة طويلة من الزمن عن سلطة الفاطميين و أصبحت الرابطة المذهبية و الثقافية هي الرابط الوحيد بين التجمعات الإباضية هناك.

و رغم أن الإباضية الرستميون قد حظيوا بدراسات عديدة في المشرق و المغرب[1] عند تأسيس دولتهم في المغرب الأوسط. إلا أنه تبقى بعض القضايا التاريخية التي تخصهم تحتاج إلى تسليط الضوء أكثر و البحث فيها، و منها اختيارهم للصحراء كمكان لاستقرارهم و التي ستصبح أحد معاقلهم الرئيسية في مواجهة الحكم الشيعي الفاطمي في بلاد المغرب.

و هنا يجدر بنا طرح إشكالية مهمة، و هي لماذا اتخذ الإباضية الصحراء معقلا رئيسيا لنشاطهم بعد سقوط دولتهم في تيهرت رغم أنهم كانوا يسيطرون على رقعة جغرافية واسعة في بقية مناطق المغرب الأوسط؟

و تندرج تحت هذه الإشكالية تساؤلات ذات دلالة، منها لماذا سكتت المصادر الإباضية عن إمدادنا بمعلومات عن المناطق الصحراوية التي لجأ إليها الإباضية بعد سقوط الحكم الرستمي؟ و كيف استطاع الإباضية مقاومة الفاطميين في المغرب و الحفاظ على وجودهم هناك؟

**1–صحراء ورجلان معقلا رئيسيا للإباضية و وريثة تاهرت الرستمية في المغرب الأوسط.**

لعبت الصحراء في تاريخ المغرب الأوسط الوسيط دورا هاما في استقرار التجمعات البشرية فقامت بها مراكز حضارية و عمرانية هامة من أبرزها ورجلان، و سدراتة، و ميزاب، فبعد سقوط الدولة الرستمية في المغرب الأوسط توجه يعقوب بن أفلح إلى ورجلان و معه عدد كبير من العائلات الرستمية، قاصدا شيخها أبو صالح ماجنون بن يمريان الذي رحب به محاولا إقناعه بتولي "إمامة الدفاع" و مناوئة الفاطميين[2]، لكنه أثر في حياة الزهد و العزلة، رافضا طلب الشيخ أبو صالح و قال قولته المشهورة "لا يستر الجمل بالغنم" [3] و بقي في ورجلان حتى توفي هناك سنة 310هـ /922م و صار قبره مزار الإباضية هناك.

و يشير محمود اسماعيل أن الفاطميين لما علموا بتجمع الإباضية في ورجلان بقيادة يعقوب بن أفلح، حاولوا تقفي آثارهم هناك، إذ وجهوا جيشا كبيرا إلى صحراء ورجلان للسيطرة عليها، لكن إباضيتها هناك بادروا بإخلائها و الاعتصام بحصن مجاور لها عرف ب " كدية بنهادين" [4] بعد شحنه بالمؤن والأقوات، و لم يستطع الجيش الفاطمي اقتحام الحصن فأثروا الانسحاب و بقيت ورجلان معقلا للمقاومة الإباضية ضد الفاطميين.

لقد أضحت ورجلان مركزا هاما للإباضية نظرا لتطرف الواحة في أقاصي الصحراء[5]. حيث لم يفلح الخلفاء الفاطميون في المغرب في إرغام الإباضية في هذه المنطقة الصحراوية الخاضعة لهم على التخلي عن مذهبهم و اعتناق المذهب الإسماعيلي، كما لم تتمخض سياسة البطش و التعصب التي جرى عليها الفاطميون لاقتحام واحة ورجلان. إلا عن اندلا ع مواجهات بينهم وبين الإباضية.

لقد تميزت واحة ورجلان الصحراوية عن باقي المناطق الأخرى التي توجه إليها الإباضيون أنها كانت أكثر أمنا [6]، وقد لعب فيها الإباضيون دورا مهما في الحياة الاقتصادية و الفكرية. كما بنوا المساجد فيها، و قد احتفظ أبو سالم عبد الله بم محمد بن أبي بكر العياشي ( 1037–1090هـ/1627–1379م) بوصف لمسجد من مساجد الإباضية بورجلان قائلا " فأعجبني غاية، فلما دخل المؤذن كبر في آذانه أربعا أول الآذان، و أربعا آخره، و لما دخل الناس للصلاة ابتدروا زوايا المسجد يتيممون و قلت عجبا هؤلاء من ذوي الأعذار فوقع في نفسي أنهم مزابة روافض." [7] و على بعد أربعة عشر كليومترا من ورجلان أخذ الإباضية في تخطيط عاصمتهم الجديدة سدارتة المعروفة عند الأمازيغ ب"أسدرتن" الذي أنشأ فيها الإباضية حضارة كبيرة و بنوا فيها قصورا عظيمة، و منازل رفيعة تدل دلالة واضحة على المنجزات ا لحضارية التي خلفها الإباضيون هناك.

و بعد ذلك استقر الإباضيون في الواد المسمى عندهم آغلان أو كما هو معروف اليوم عند الجميع بوادي ميزاب حيث أسسوا هناك حياة حضرية في المدن الخمس التي شيدوها و تسمى قصور ( **Ksars**) و إمليشت و تجنينت (العطف) و آث بنورة و آث يزكن و تاغردايت و أحيوا فيها الأرض الموات، و حولوها إلى بساتين، و لعل أهم ما برع فيه الإباضيون في هذه المناطق الصحراوية من المغرب الأوسط هو التجارة حيث تحولت مدنهم الخمس التي ذكرناها آنفا إلى مراكز تجارية نشيطة عامرة تتوفر على جميع السلع.

و يبدو أن الإباضية قد وجدوا ضالتهم في واحة ورجلان، بعد محاولة فاشلة في الاستلاء عليها من جانب عبيد الله المهدي، و قد شهدت الواحة الصحراوية منذ ذلك الحين مجتمعا إباضيا متماسكا و مزدهرا – أعاد بشيء من الحياة– سيرة تيهرت الرستمية على مستوياتها الاجتماعيةو الحضارية، و قد وقع اختيار الإباضية على ورجلان كمجال لاستقرارهم للاعتبارات التالية:

- أهمية واحة ورجلان الاقتصادية : تشير الكتابات الجغرافيين إلى أهمية الواحة من الناحية التجارية خلال الفترة الوسيطية، حيث كانت مركزا تجاريا مهما يقع في بداية الطريق التجاري الأوسط، و هو ما أدى بإنسحاب الإباضيين من تيهرت نحو ورجلان في محاولة منهم لممارسة النشاط التجاري هناك[8]. خاصة و أنهم كانوا معروفين بذلك عندما كان لهم دور كبير في ازدهار تيهرت الرستمية، اقتصاديا، إذن فقد كانت لهم ورجلان متنفسا رئيسيا لمزاولة نشاطهم التجاري بعد سقوط الدولة الرستمية و لأهمية مركز ورجلان في التجارة العابرة للصحراء يصف لنا الإدريسي المدينة قائلا: "*قبائل مياسر و تجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة و بلاد نقارة فيخرجون منها التبر و يضربونه في بالدهم باسم بلادهم و هم وهبية إباضية.*"[9]
- تطرف الواحة في أقاصي الصحراء، بحيث يصعب على الفاطميين دخولها، فهي في مأمن من غارات الفاطميين، فلا غرو أن يكون الإباضية قد اختاروها للاستقرار، و بالفعل لم يتمكن الفاطميون من السيطرة عليها و اقتحامها، و رجعوا أدراجهم، و بقيت الواحة مركزا لتجمعهم.
- كانت ورجلان أرضا خصبة لاستقبال الإباضية بدليل أن يعقوب بن أفلح لما نزل فيها لقي ترحابا من قبل حاكمها صالح بن جانون بن يمريان حيث خرج لاستقباله في جموع أهل ورجلان.[10]
- دور ورجلان العلمي حيث أصبحت وريثة تيهرت الرستمية في المغرب الأوسط، و هو ما شجع الإباضية للتوجه إليها لمواصلة الحركة العلمية التي بدأت في تيهرت، خاصة و نحن نعلم مدى حرص الإباضية على العلم بداية من مؤسسي دولتهم عبد الرحمن بن رستم إلى يعقوب بن أفلح الذي حاول في ورجلان تجديد سيرة الائمة الاوائل حيث اشتهر بالعلم و التقوى و كان حافظا للقرآن الكريم مجيدا له، و في ذلك قيل أنه عندما سأله بعض الورجلانيين عما إذا كان يحفظ القرآن كله، رد عليهم قائلا:" معاذ الله ينزل على موسى و عيسى ما لم أحفظ و أعرف معناه، فكيف بكتاب الله."[11] .

**2–الإباضية في وادي ميزاب بصحراء المغرب الأوسط:**

لم يقتصر الوجود الإباضي بصحراء المغرب الأوسط على ورجلان ; و إنما لجأوا كذلك للاستقرار في وادي ميزاب و ذلك بعد اجتماعهم بأريغ سنة 421هـ للنظر في مسائل الإباضية الرستميين بعد أن غص أريغ بهم. فاقتضى المؤتمر على تعيين شخصية مرموقة في الوسط الإباضي تمثلت في العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الفرسطائي ليجول في صحراء المغرب الأوسط عله يجد مكانا للإباضية الرستميين يمكنهم التفسح به و غيرهم من الإباضية في أريغ، إذ تروى المصادر التاريخية أن العلامة خرج رفقة ابنه سائحين بنواحي الجنوب، فوقع اختيارهم على وادي ميزاب، إلا أنهم وجدوه أهلا بالكثير من المعتزلة، فرجع الرأي إلى مؤتمر أريغ، فانعقد ثانيا، و اتفق فيه على النزوح إلى هذا المكان أي وادي ميزاب و تعميره بما يصلح سكانه المعتزلة المزابيين من العلم و الألفة و حسن الجوار.[13] فرجع الإمام المصلح هو و ابنه، في سنة 422هـ وصل بلدة العطف، و هي الوسط المعمور أكثر من غيره بالمعتزلة، و بدأ في دعوته للمذهب الإباضي، الذي اعتنقه جل المزابيين، ثم بدأت هجرة الرستميين الإباضيين إلى وادي ميزاب.

و الواقع أن تفسير تحول الإباضية للاستقرار في وادي ميزاب بصحراء المغرب الأوسط راجع بالأساس إلى دور القبائل الهلالية في القضاء على المذهب الإباضي بالبلاد الواحية و الصحراوية و منها ورجلان [14]. فقد ضايقت هذه القبائل معتنقي المذهب الإباضي و سيطرت على الكثير من أراضيهم، لذلك وجد الإباضية في وادي ميزاب مكانا يوفر لهم الحماية و يجنبهم شر الغزوات الهلالية، و يبدو أن بني هلال عندما تحركوا نحو الواحات الصحراوية أبعدوا على كل نطاق حضاري، لا ينظرون إلا العمران إلا بكونه هدفا للإغارة عليه و نهبه[15]. حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول أن الإباضية صاروا أشتاتا بعد سيطرة بني هلال و هو الامر الذي جعلهم يفكرون في اتخاذ واد ميزاب كمعقل لتجمعهم. و على إثر غزو المرابطين لورجلان في منتصف القرن الرابع الهجري (10م) خرج مابقي من الإباضية فيها و توجهوا إلى وادي ميزاب التي كانت مكان لتجمعهم[16]. و قد عمد الإباضية في واد ميزاب إلى تنظيم أنفسهم فيما يعرف عندهم بالحلقة أو العزابة لتبادل الآراء و دراسة وجهات النظر [17]، و قد عدد الورجلاني كل الشيوخ الإباضية (أئمة الكتمان) الذين أشرفوا على تدبير بعد انقراض الإمامة و حافظوا على الدعوة شؤون جماعاتهم إلى أن ظهرت الحلقة، و عنه نقل كل من كتب عن الموضوع ممن أتوا بعده خاصة الدرجيني[18].

**3–نظام العزابة عند الإباضية في معاقلهم بصحراء المغرب الأوسط:**

لجأ الإباضية في معاقلهم بصحراء المغرب الأوسط بورجلان و سدراتة، و بني ميزاب إلى تدبير شؤون جماعتهم إلى تنظيم يعرف بالعزابة لتبادل الآراء و قد عرف عبد الرحمن بكلي محقق كتاب طبقات المشايخ و هو الإباضي المعاصر العزابة بقول " واحدهم عزابي، هذه اللفظة تستعمل لقبا لكل من لازم الطريق و طب العلم و سر أهل الخير و حافظ عليها و عمل فإن حسن جميع هذه الصفات سمي عزابيا." [19]، و من شيوخ الحلقة الذين ذكرهم

الدرجني أبي محمد بن عبد الله بن محمد اللنتي من أهل الطبقة الحادية عشر بتينزارين بورجلان، و كان هذا التنظيم يتولى الإشراف على الشؤون الدينية و السياسية و التربوية للمجتمع الإباضي. و قد مكن نظام العزابة المذهب الإباضي في المناطق الصحراوية التي انتشر فيها من ضمان استمراره على الرغم من المحاولات العديدة للقضاء عليه التي قام بها الشعة الفاطميين، و كان بحق ردة فعل متقنة التنظيم محكمة الأبعاد لأنها ضمنت للإباضية التلاحم ووحدة الصف و مكنتهم من مواجهة مختلف أشكال المضايقات التي مارسها عليهم مخالفوهم من المذهب الشيعي.

4–يعقوب بن أفلح يجدد سيرة الأئمة الأوائل في العلم بورجلان.

اشتهر يعقوب بن أفلح في ورجلان بالعلم و التقوى و بأنه كان حافظا للقرآن الكريم مجيدا له، و في ذلك قيل أنه عندما سأله بعض الورجلانيين عما إذا كان يحفظ القرآن كله رد عليهم قائلا:" معاذ الله أن يتول على موسى و عيسى ما لم أحفظ و أعرف معناه، فكيف بكتاب الله." [20]، بمعنى أنه كان يعرف التوراة و الإنجيل إلى القرآن، أما ورعه و عبادته فكان مجتهدا في الليل.

نختم القول بأن صحراء المغرب الاوسط ممثلة في ورجلان و سدراتة و وادي ميزاب كانت أكبر المعاقل الرئيسية للإباضية حيث حافظوا هناك على مذهبهم و لم يستطع الفاطميون الشيعة القضاء عليهم حيث عادوا أدراجهم منهزمين، كما لم يستطع الغزو الهلالي و المربطيمن اقتحام الصحراء التي التجأ إليها الإباضية، ليصير هذا المذهب و إلى يومنا هذا محددا أساسيا للهوية المذهبية عندهم.

الهوامش:

1. منها دراسة، محمد زينهم محمد عزب، قيام و تطور الدولة الرستمية في المغرب، دار العالم العزبي، القاهرة 2013، و كذلك دراسة مزدهوي مسعود، الإباضية في المغرب الأوسط، القاهرة 2005، وإبراهيم بحاز، الدولة الرستمية دراسة الأوضاع الإقتصادية و الحركة الفكرية، منشورات ألفا 3 الجزائر 2010، و أيضا دراسة جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
2. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، دار العودة بيروت 1976، ص 175.
3. الدرجيني، طبقات الإباضية، تحقيق إبراهيم طلاي ط2 بدون دار نشر و سنة النشر ج1، ص 72.
4. نفسه، ص63.
5. محمد زينهم، قيام و تطور الدولة الرستمية في المغرب، دار العالم العزبي، القاهرة 2013، ص149.
6. مسعود مزهودي، المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال، القاهرة 1988، ص75.
7. الدرجيني المصدر السابق ج1، ص47.
8. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج2، دار منشأة المعارف بالإسكندرية مصر 1978، ص398.
9. صباح إبراهيم الشيخلي، النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي العزبي حتى نهاية القرن 19، منشورات معهد البحوث و الدراسات العربية، طبع مؤسسة الفليج للطباعة و النشر، الكويت 1984، ص31.

10. الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية و الصحراوية مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق هنري بيريس الجزائر 1957، ص89.
11. سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق ج2، ص398.
12. نفسه، ص399.
13. محمد زينهم، المرجع السابق، ص150.
14. حسن حافظي علوي، مراجعات حول الصراع السني الإباضي ببلاد المغرب ضمن كتاب جماعي الصراع المذهب في المغرب، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية الرباط مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1492هـ/2008م، ص 295.
15. عبد السلام همال، هجرة قبائل بني هلال و بني سليم إلى المغرب منتصف القرن 5هـ/11م ضمن أعمال الملتقى الدولي حول مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس أيام 9–10–11أبريل 2007، ص295.
16. Masqueray.E.Chronique d'abou Zakaria, Alger 1878.p.89
17. يحي معمر علي، الإباضية في موكب التاريخ، نشأة المذهب الإباضي، مكتبة و هبة القاهرة 1964 ج1، ص 97–99.
18. الدرجيني، المصدر السابق ج1، ص167–.195
19. عبد الرحمن بكلي، مقدمة تحقيق كتاب طبقات المشايخ ص9، علي معمر الإباضية ج1،ص97.
20. الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص105.